الاعتداء الجنسي على الطفل والآثار التي يخلفها في سن الرشد (دراسة حالة)

ا. بوحوى نادية

جامعة بجاية

ملخص المداخلة:

تعتبر ظاهرة الاستغلال والاعتداء الجنسي على الأطفال من المشكلات الراهنة التي تعاني منها المجتمعات بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة حيث لا تكاد تتوقف وتخلو وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة عن الحديث عن هذا الموضوع الذي يعتبر من أقصى مظاهر العنف والاستغلال للأطفال من طرف الراشدين. والأخطر من ذلك, ففي مناسبات عديدة يتعرض بعض الأطفال لتحرشات واعتداءات جنسية لكنهم لا يجدون ضمن محيطهم من ينتبه لمعاناتهم ، بل قد يواجهون بالضرب والاتهام والنبذ فيسجنون في عزلة وصمت اللذان يرافقانهم طيلة حياتهم ،إلى أن تتفجر في توترات نفسية حادة في المراحل المتقدمة من العمر(مرحلة الرشد)، لان الاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة لا ينتهي بانتهاء الفعل بل هناك آثار تظهر مباشرة بعد الاعتداء وهناك أخرى تؤجل لتظهر في مراحل أخرى من العمر ،فغالبا ما يعاني هؤلاء الضحايا من اضطرابات سواء بعد الاعتداء مباشرة أو على المدى البعيد ،حيث قد يؤدي ذلك إلى اضطرابات سلوكية ،نشاط جنسي كثيف ومبكر وفقدان تقدير الذات واضطرابات سيكوسوماتية. وفي غالب الأحيان يمر الاعتداء بشكل خفي، وتظهر الأعراض في مرحلة المراهقة أو مرحلة الرشد ،كما أن غياب الأعراض الواضحة عند الأطفال لا يعني غياب الصدمة ، فالانهيار النفسي والجسدي اللذان يخلفهما الاعتداء يحدث تغييرا في حياة الضحية وفي علاقتها مع الآخرين ،ويظهر ذلك في تعرض الطفل إلى مجموعة من الاضطرابات السلوكية والجنسية ،التي لا تنتهي بانتهاء الفعل ولكن غالبا ما تمتد آثارها ومضاعفاتها إلى مراحل متقدمة من العمر،حيث كشف الباحثون أن نسبة 15٪ إلى 49٪ من الضحايا لا تظهر عليهم أعراض محددة على ذلك الاعتداء إلا بعد عدة سنوات ، خاصة إذا كان ذلك في المراحل المبكرة من الطفولة ،لكون الطفل في تلك المرحلة خاصة في السنوات الخمسة الأولى في طور تكوين شخصيته وجهازه النفسي ،فيأتي ذلك الاعتداء ليحدث صدمة وتشوها في ذلك البناء ، لان

أسسه لم تكن في البداية سليمة، فكل ما لم يبن على أسس سليمة تكون نهايته التشوه أو الانهيار. ولنوضح ذلك أكثر سنعرض حالة تعرضت للاعتداء الجنسي في الطفولة ونحاول أن نترق إلى الآثار التي خلفها الاعتداء في مرحلة الرشد.

1/الإشكالية:

لقد تعددت التعاريف المقدمة لموضوع العلاقات الجنسية بسبب تعدد تخصصات الباحثين وتعدد الثقافات وتدخل عدة عوامل منها الاجتماعية والتربوية والدينية ،إلا انه غالبا ما يقدم البيولوجيون تعريفا بسيطا للعلاقات الجنسية كوظيفة تهدف إلى التكاثر ،بالتالي يقربون بين العلاقات الجنسية عند الحيوانات والعلاقات الجنسية عند الإنسان ،إلا أن عند هذا الأخير تكون أكثر تعقيدا لان الإنسان كائن عاقل.(: Damiani .C.1999) لأجل تحقيق الأهداف التي وجدت عليها هذه الغريزة هناك عدة معايير تبنى عليها هذه العلاقات الجنسية ، من بينها أن تكون بين الرجل والمرأة واللذان يشترط فيهما البلوغ والرضا ،إلى جانب العادات والتقاليد والقيم التي يتميز بها كل مجتمع ،بالتالي كل علاقة جنسية لا تخضع لهذه المعايير تعتبر انحرافا جنسيا ،كالسادية والمازوشية والجنسية المثلية وكذلك تفضيل الأطفال .pédophilie. أو اعتداءا جنسيا كالاغتصاب. والاعتداء الجنسي هو كل سلوك ذو طابع جنسي سواء كان ذلك بالمداعبة السطحية أو المداعبة تحت الثياب يمارس بعنف وتهديد أو إغواء ومفاجأة. (Damiani .C.1999 :141).

إن أكثر الأفراد عرضة للاعتداءات الجنسية هم الأطفال والمراهقين ،فكثيرا ما يضبط أشخاص بالغون يحاولون غواية الأطفال سواء كانوا من البنات أو من الذكور .وقد يحاول البالغ أن يجامع الطفل وقد يحدث الجماع فعلا ،والمتطلع لهذا الموضوع يجد انه بالرغم من كونه من الطابوهات ،إلا أنه قد حظي بدراسات عديدة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انتشار هذه الظاهرة في المجتمعات .

و بلادنا الجزائر كباقي البلدان تسجل فيها كل سنة حالات اعتداء جنسي على الأطفال فقد سجلت مصالح الدرك الوطني لولاية الجزائر(1610) ضحية على المستوى الوطني سنة(2009)وهذه

الإحصائيات تمس معظم ولايات الوطن (سجلات الدرك الوطني لولاية الجزائر، 2009) وهذه الأرقام في تزايد دائم ،كما أنها قد لا تشير إلى الانتشار الفعلي للظاهرة لأنه غالبا ما تتميز مثل هذه الاعتداءات بالتستر والصمت.

غالبا ما يعاني هؤلاء الضحايا من اضطرابات سواء بعد الاعتداء مباشرة أو على المدى البعيد ،حيث قد يؤدي ذلك إلى اضطرابات سلوكية ،نشاط جنسي كثيف ومبكر فقدان تقدير الذات واضطرابات سيكوسوماتية.(Gabel et Boyer.2008 :108). وفي غالب الأحيان يمر الاعتداء بشكل خفي ،وتظهر الأعراض في مرحلة المراهقة أو مرحلة الرشد ،كما أن غياب الأعراض الواضحة عند الأطفال لا يعني غياب الصدمة ،هذا ما أوضحه برايجر Braijer(1985) في دراسة قام بها عن العلاقة بين سن الطفل وخطورة الاعتداء ،حيث وجد ارتباط بين سن الطفل عند الاعتداء والآثار الخطيرة المترتبة عن ذلك ،أي كلما كان سنه اقل كلما كانت الآثار اخطر.(Gabel et Boyer.2008 :88-108) فالانهيار النفسي والجسدي اللذان يخلفهما الاعتداء يحدث تغييرا في حياة الضحية وفي علاقتها مع الآخرين ،ويظهر ذلك في تعرض الطفل إلى مجموعة من الاضطرابات السلوكية والجنسية ،التي لا تنتهي بانتهاء الفعل ولكن غالبا ما تمتد أثارها ومضاعفاتها إلى مراحل متقدمة من العمر،حيث كشف الباحثون أن نسبة 15٪ إلى 49٪ من الضحايا لا تظهر عليهم أعراض محددة على ذلك الاعتداء إلا بعد عدة سنوات.
(Viaux.G.L.2003 :326)كما يمكن لهذه الظاهرة أن تنتقل عبر الأجيال ،ففي بحث أجرته كاتي ويدوم Katy Widom(1989) على عينة مقدارها (900) فرد أثبتت أن العنف الجسدي المبكر يمكن الاعتماد عليه للتنبؤ بالسلوك العنيف وكذلك ما سيمارسه الفرد يدوره في المستقبل على غيره (ناصر ميزاب 2005 :141).

فمعظم المعتدين كانوا هم أيضا ضحايا الاعتداء في الماضي ،لكن ليس كل الضحايا يصبحون معتدين ،حيث تقول كارول دامياني Carole Damiani "أن الصدمة تحدث دائما عند فرد ذو تاريخ شخصي وتسجل في ديناميكية الفرد"(Damiani .C.1999 :141). لذلك يسعى هذا البحث إلى الكشف عن الأعراض التي يخلفها الاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة على المستوى القصير

المدى أي بعد الاعتداء مباشرة والمستوى البعيد المدى أي في مرحلة الرشد ،وهذا بالاعتماد على دراسة حالة واقعية تكشف لنا وقائع الاعتداء والأعراض التي خلفها .

2/ الآثار المترتبة عن الاعتداء الجنسي على الطفل :

2-1/ قلق ما بعد الصدمة :

وتظهر أعراضه بعد مدة زمنية من وقوع الفعل ،قد تصل أحيانا إلى عدة أشهر ومن أعراضه نجد:

- استحضار وإعادة عيش أحداث الصدمة ،ويظهر ذلك عند الطفل من خلال سلوكياته أثناء اللعب وكذلك ظهور كوابيس واستيقاظ مفاجئ في الليل.
- إحساس الطفل أن الاعتداء قد يتجدد خاصة بعد مثير خارجي مثل فيلم فيه مظاهر العنف أو صوت حاد مفاجئ.
- تجنب المواقف التي تذكره بالاعتداء.
- قصور مستوى العلاقات الاجتماعية.
- اضطرابات في النوم .
- اضطرابات معرفية تمس التركيز والذاكرة .
- غضب شديد موجه نحو الذات ونحو الأقارب.

2-2/تفكك ما بعد الصدمة la dissociation traumatique :

وتظهر من خلال اضطراب تفكك في الشخصية La dépersonnalisation حيث يشعر الطفل بعدم امتلاكه لجسده ونفسيته، والإحساس بعدم واقعية المحيط وغرابة العالم، دون اضطراب في الإدراك، كما يشعر الطفل بالانفصال وكأنه تحول إلى آلة أو شيء جامد. (Gerard Lopez,1997 :36)

2-2/ اضطرابات سيكوسوماتية : وتظهر فيما يلي:

- فقدان الشهي العصبي anorexie أو الشراهة la boulimie.
- شكوى متعددة(ألام الرأس، إمساك وألام دون أسباب عضوية).
- اضطراب المجاري التناسلية.
- التبول ألللإرادي.énurésie.
- التبرز اللاإرادي encoprésie . (Damiani .C.1999 :117).

2-3/ التمثل بالمعتدي:

إن المرور إلى الفعل ليس بالبحث البسيط عن اللذة كما يعتقد الكثيرون ،إنما ذلك يخضع لعدة حتميات ،فمن جهة هناك قوة داخلية تدفع لإعادة الحادث الصدمي هذا ما أوضحه فرويد في كتابه " au delà de principe de plaisir".فكل شيء يمر كاتجاه نشط لإعادة ذلك الحادث ،أين تبحث الضحية للإفلات من السلبية المدمرة وبناء روابط للمعنى الذي افتقرت إليه أثناء الاعتداء" .إذن التمثل بالمعتدي هو وسيلة للعب الدور النشط لكون أن الحتمية الخاصة عند الإنسان هي السيطرة على الموضوع الذي يشكل عائقا في حياته والتحكم فيه .

2-4/ أعراض أخرى :

- استثارة جنسية مبالغة :كالتعري ومحاولة الاعتداء وتكرار نفس السلوك على أطفال آخرون.
- سلوكات انحرافية .
- إيذاء الذات .
- الإدمان. (Damiani .C.1999 :49).

بالإضافة إلى إحساس الطفل بالذنب والخجل لاعتقاده انه شارك في ذلك الفعل وانه لم يتجنب ذلك وكل ذلك يؤدي إلى الإحساس بالغضب وعدم الأمان والإحساس بالضعف وضعف التركيز والسلوكات العنيفة نحو الذات ونحو الآخرين. (Damiani .C.1999 : 241).

يظهر مما سبق أن الأعراض التي يخلفها الاعتداء الجنسي على الطفل خطيرة جدا، حيث تتعدى الأعراض الجسدية لتشمل الأعراض النفسية كالقلق والمخاوف واضطرابات النوم الناتجة عن قلق ما بعد الصدمة،كما أن هذه الأعراض لا تختفي بانتهاء الفعل بل تلازم الفرد طيلة مراحل حياته خاصة إذ لم يتم التكفل النفسي المبكر ،ولنوضح ذلك أكثر سنعرض حالة تعرضت للاعتداء الجنسي في الطفولة ونحاول أن نترق إلى الآثار التي خلفها الاعتداء على الطفل في مرحلة الرشد .

3/ عرض الحالة :

يبلغ عمر الضحية 26 سنة تنتمي إلى عائلة ذات مستوى اقتصادي متوسط وتعيش مع والديها ، وهي الأخت الكبرى لأخوين وأخت ،ولديها اخوين من زوجة الأب الأولى وهما لا يعيشان معهم .تعيش في أسرة يسودها جو من الهدوء والاستقرار باستثناء بعض الخلافات بين الوالدين من حين لأخر. تعرضت للاعتداء الجنسي في المنزل لما كان عمرها 5 سنوات، من طرف جارها الذي كان يبلغ من العمر 25 سنة حيث كان يتردد على المنزل واستطاع كسب ثقة الأسرة.

في بداية المقابلة أظهرت الحالة نوعا من القلق ،وعند الدخول في الموضوع لاحظنا عليها رغبة شديدة في الحديث ،وبدأت حديثها بقولها "كنت صغيرة ولا أتذكر كثيرا ،أتذكر فقط أن أمي خرجت وتركتني معه لأنها تثق فيه ،وكنت خائفة جدا "كما قالت أيضا "أتذكر أنني أحسست أن شيئا ما سقط علي بشكل مفاجئ ولم يسبق ذلك أية مداعبة ".

لما سألناها عن عدد المرات التي تعرضت فيها لمثل ذلك الفعل أجابتنا بقولها "لا أتذكر بالضبط عدد المرات، ولكن أنا متأكدة انه ليست مرة واحدة".وأضافت أيضا أن ذلك كان من طرف نفس الشخص فقط ولم يرافق ذلك تهديد وطلب بإلزام الصمت لكونها صغيرة جدا. لم تخبر الحالة احد عما حدث لها إلا بعد أن بلغت عمر 21 سنة أين أخبرت ابنة عمها وعبرت عن ذلك بقولها "لم أتكلم عن ذلك إلا بعد أن كان عمري21 سنة حيث أخبرت ابنة عمي ،لأني لم أكن افهم تلك الأمور ، وزيادة إلى ذلك كنت قلقة حول عذريتي" كما حدثتنا عن مدى خوفها لما حدث ذلك على الرغم من عدم فهمها لما حصل لها ،وقالت أنها تتمنى الانتقام من ذلك الشخص ولو بضربه .

سألنا الحالة عن الاضطرابات التي عانت منها بعد الاعتداء،أجابتنا بقولها "لا أتذكر جيدا ولكني كنت خائفة جدا ويزداد خوفي أكثر لما أرى ذلك الشخص واشعر وكأني مازلت أعيش ذلك الموقف كما أتذكر أنني عانيت من الإسهال ومن آلام في الجهاز التناسلي ،دون أن انسي اضطرابات في النوم فقد كنت أرى كوابيس ،وكنت أعاود تلك المشاهد ،وقد عاودتني المشاهد لما كان عمري 15 سنة وتعجبت من أين جاءتني حتى تذكرت الحادثة "

وعن علاقاتها مع الآخرين قالت أنها جيدة ،لديها زملاء وأصدقاء تتفاعل جيدا معهم كما وصفت علاقتها بأقاربها بالجيدة ،باستثناء علاقتها بالجنس الآخر وهو المشكل الذي دفعها للاستشارة النفسية ،حيث قالت أنها لا تحمل أية مشاعر لهم ،ولا تهتم بالعلاقات الجنسية ولو في الخيال، على الرغم من أنها مخطوبة حيث عبرت عن ذلك بقولها"على الرغم من أنني مخطوبة ،إلا انه لا توجد أحاسيس،وكان قلبي متجمد" حيث ترى أن الرجل يعتبر رمزيا فقط بالنسبة لها فقط للحماية ،هذا ما أدى إلى خلافات مع خطيبها الذي وصفته بالمتفهم كثيرا والذي نصحها عدة مرات بمراجعة أخصائي نفساني.إضافة إلى قولها:"أرى نفسي لست عادية ولست كباقي الفتيات" .كما صرحت المفحوصة برغبتها أن تكون أما ولكن ذلك بدون علاقات جنسية .

4/تحليل ومناقشة الحالة:

تعتبر هذه الحالة حالة شاهدة عن ظاهرة الاعتداء الجنسي على الأطفال والذي غالبا ما يحدث من طرف أشخاص مقربين يثق فيهم الوالدين والطفل، ولكن هؤلاء يستغلون الفرصة لممارسة انحرافاتهم والغدر بمن يثق فيهم. يظهر من خلال الحالة أن آثار الاعتداء الجنسي في الطفولة تظهر على المستويين القصير المدى والطويل المدى ، فالأعراض قصيرة المدى والتي ظهرت على الحالة مباشرة أو بعد مدة قصيرة من الاعتداء هي آثار نفسية منها الخوف والهلع والقلق واضطرابات في النوم ، وآثار جسدية حيث عانت الضحية من الإسهال وآلام على مستوى الجهاز التناسلي ،أما الآثار طويلة المدى والتي رافقت الضحية طيلة مراحل عمرها حتى سن الرشد ،تمثلت في الكوابيس وإعادة عيشها لتلك الأحداث وهو ما نعبر عنه بقلق ما بعد الصدمة ،و عدم رغبتها في الجنس الآخر وفي العلاقات الجنسية مما قد يؤدي إلى عدم الاستقرار الزواجي، بالإضافة إلى إحساسها

بأنها غير عادية مقارنة بالآخرين،لأنها لا تستطيع أن تنظر إلى الجنس الآخر بالنظرة التي تنظر إليه الفتيات الأخريات ،بل تعتبر الرجل فقط رمزا للحماية التي افتقدت إليها وقت الاعتداء عليها .

إذن هذه الحالة تؤكد أن الاعتداء على الطفل بصفة عامة والاعتداء الجنسي بصفة خاصة من الظواهر الخطيرة التي تهدد كيان الفرد والتي تمتد آثارها عبر مراحل العمر المختلفة ،خاصة إذا كان ذلك في المراحل المبكرة من الطفولة ،لكون الطفل في تلك المرحلة خاصة في السنوات الخمسة الأولى في طور تكوين شخصيته وجهازه النفسي ،فيأتي ذلك الاعتداء ليحدث صدمة وتشوها في ذلك البناء ، لان أسسه لم تكن في البداية سليمة، فكل ما لم يبن على أسس سليمة تكون نهايته التشوه أو الانهيار.

5/ التوصيات والاقتراحات:

1/ التأكيد على أهمية التربية الجنسية والثقافة الجنسية ، بداية من الأسرة إلى المدرسة وكل المؤسسات الاجتماعية.

2/ فتح باب الحوار والتواصل بين الأطفال والوالدين بالبعد عن التوبيخ وتحميل المسؤولية مما يساعد الطفل على الكشف عن معاناته وما قد يتعرض إليه من تهديدات ومخاطر واعتداءات سواء من طرف الأقارب أو الغرباء .

3/ التأكيد على أهمية التكفل النفسي والطبي المبكر لحالات الاعتداءات على الأطفال فور اكتشاف الحادثة بهدف تفادي تفاقم الآثار السلبية وامتدادها إلى مراحل العمر اللاحقة.

4/ التطبيق الصارم للإجراءات القانونية ضد كل أشكال الاستغلال الجنسي للأطفال ،وعدم الاكتفاء بعقوبة المعتدي بالحبس ،بل بالمتابعة النفسية لمنع العودة إلى تكرار الفعل .

5/ التفتح على موضوع الاعتداءات الجنسية ونزع ستار الصمت والكتمان عليه وجعله موضوعا قابلا للمناقشة بين الأفراد.

6/ الاعتناء ورعاية الأطفال وحمايتهم من استغلال الراشد لبراءتهم .

7/إنشاء جمعيات ومراكز تتكفل بهؤلاء الضحايا وتساهم في تحسيس الأولياء والمجتمع بخطورة الظاهرة .

المراجع:

1/ ناصر ميزاب(2005) **مدخل الى سيكولوجية الجنوح** .ط1 .عالم الكتب .القاهرة.

2/Carole Damiani(1999) **les enfants victimes de violences sexuelles**. Martin media. Paris.

3/Gabel et Boyer(1997)**le traumatisme de l'inceste**. Edition2.Paris.

4/Gerard Lopez(1997) **la violence sexuelle sur les enfants**. Presse universitaire. Edition 1.Paris.

5/Viaux .J.L(2003) **psychologie légale**. Frison roche. Paris.